نجدة فتحي صفوة ، **بيروبيجان : التجربة السوفياتية لانشاء وطن قومي يهودي** (مركز الدراسات الفلسطينية ، بغداد ، ١٩٧٣)

قليلة هي الدراسات والابحاث التي تركزت حول المسألة اليهودية ومحاولة حلها كما تمثلت في تجربة الاتحاد السوفياتي في انشاء وطن قومي يهودي يكون « قومي الشكل واشتراكي المحتوى » ، وذلك عن طريق تخصيص احدى المقاطعات السوفياتية وتوطينهم فيها . وفي هذا الكتاب يحاول المؤلف اطلاع القارىء العربي على هذه التجربة التي تركزت حول حل المسألة اليهودية في الاتحاد السوفياتي بشكل خاص ، عن طريق انشاء وطن قومي لليهود في احدى مقاطعات الاتحاد السوفياتي الواقعة في الجزء الاسيوي. وهي ما يطلق عليه اسم بيروبيجان التي تقع على حدود الصين . ولقد انتهت هذه التجربة الى الفشل .

ان السؤال الاساسي الذي يجدر طرحه هو: لماذا فشلت تجربة بيروبيجان في حل المسألة اليهودية ؟ واستطرادا لماذا نجحت الصهيونية في انشاء الكيان الصهيوني ؟ يورد الكاتب الاسباب التالية لفشل تجربة بيروبيجان : « ان اليهود بطبيعة تكوينهم الاجتماعي ــ الاقتصادي منذ اجيال وقرون هم من سكان المدن ، والمدن الكبيرة بصورة خاصة . وبينما يعيش ٤٥ بالمئة من سكان الاتحاد السوفياتي في المناطق الريفية ، فان ٩٦ بالمئة من اليهود يعيشون في المدن . وبالرغم من انطواء اليهود على انفسهم في احياء خاصة في المدن التي وجدوا فيها، فانهم لا يستطيعون ان يعيشوا بعضهم على بعض ، وانما يعيشون على غيرهم بواسطة تجارتهم وخدماتهم وحرفهم ومهنهم. ولذلك فانهم لا يمارسون اعمالهم اليومية في احيائهم الخاصة دائما، وانما ينتشرون في انحاء المدن كلها ولا يتجمعون في احيائهم الا للسكنى . وهذا التكتل الذي تعودوا عليه كان نتيجة الاضطهادات التي تعرضوا لها خلال تاريخهم ، مما جعلهم يجدون في التجمع مزيدا من الامن ، وتقليلا من احتمال التعرض للاعتداء ، وذلك فضلا عن الغريزة التي كان بعض علماء الاجتماع يسمونها « غريزة التجمع » التي تجعل ابناء القومية الواحدة او الديانة الواحدة يتكتلون في منطقة سكنية واحدة . وبالاضافة الى ذلك فان اليهود لا يميلون الى الزراعة (وبيروبيجان اراض زراعية بالدرجة الاولى) . وقد ابتعدوا عنها منذ عهود بعيدة . وربما كان ذلك نتيجة لتعودهم السكنى في المدن . فهم كما قال خروشوف ، « خياطون وقاطعو زجاج ومجوهرات ، انهم تجار وصيادلة ونجارون » . ولكن قلما وجد حمال يهودي او عامل بناء او فلاح . وقد وصفهم كاتب أكثر مجاملة بأنهم يفضلون العمل بأدمغتهم وأنامل أكثر من عضلاتهم . ولذلك كان ترحيل اليهود الى مقاطعة خاصة بهم : مقاطعة ارضها بكر وليس فيها مساكن ولا طرق او جسور ليقوموا ببنائها بأنفسهم ، يقتضي قيام اغلبيتهم بأعمال جسيمة مرهقة ، سواء أكانت في الزراعة ام في البناء ام في شق الطرق وبناء الجسور واقامة المصانع وقطع الغابات وغير ذلك من الاعمال التي هي غريبة عما تعودوه ونشأوا عليه من اعمال ، وذلك ما لم يرغبوا فيه ، فصدوا عنه . ان اليهود الذين تدفقوا على امريكا لم يذهبوا اليها بقصد الحفاظ على يهوديتهم بقدر هربهم من الاضطهادات والمذابح التي تعرضوا لها في العهد القيصري . ولكنهم حين هاجروا لم يقصدوا مناطق خالية ليبنوها ، ولم يذهبوا الى مناطق زراعية ، بل ذهبوا الى المدن الكبيرة التي توفر لهم امكانيات واسعة لممارسة الاعمال والمهن التي تعودوا عليها منذ اجيال واجيال . ويظهر من دراسة اعدتها دائرة النفوس الاميركية عن المجموعات الدينية في الولايات المتحدة في سنة ١٩٣٦ « ان ٧٨ بالمئة من مجموع اليهود يقيمون في اكبر ١٤ مدينة في الولايات المتحدة». ان ما أورده الكاتب هو السبب الرئيسي لفشل تجربة بيروبيجان . وتقع المسؤولية فيه ، بالدرجة الاولى ، على اليهود . اما الاسباب الاخرى والتي تأتي بالدرجة الثانية فهي التخطيط السيىء للمشروع من جانب الحكومة السوفياتية مما ادى الى رجوع اعداد كبيرة من المهاجرين اليهود الذين ذهبوا الى بيروبيجان للتوطن ، وانتشار اخبار ذلك بين اليهود مما ادى الى احجام الكثيرين عن الذهاب الى بيروبيجان متأثرين بدعايات اليهود الراجعين منها وخوفا لما تعرض له اولئك من صعوبات . ومنها موقف الحركة الصهيونية من المشروع ودعاياتها المثبطة هذه . فقد كان الصهيونيون يريدون استعمار فلسطين ويرون في المشروع نسفا لمخططاتهم ولذلك شنوا عليه حربا لا هوادة فيها . قبل الشروع في مناقشة الرأي الذي يورده الكاتب